

الشفقة والانسانية فإنه يتخذ النصيحة سلماً للوصول الى اغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر، صفت النفوس أو تكدرت، ارتفعت الآداب أو انحطت، صحت الارواح أو اعتنت، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الالهواء يستعملونه في فساد الامة والمشيرة لقضاء أوطارهم الا وان القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أرباب الجرائد فإن كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقد استحقوا التعظيم والاحترام، والتبجيل والاجلال، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم وإلا استحقوا الرفض والطرود والإبعاد ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح ان يقدفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لا يقتصر ضرره على المبتلى به بل يتعداه بالسراية الى كل ما سواه

المقالة الثانية - الصناعة

قد عاد حضرة الأستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة وابتدأ حفظه يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولاً جليلة غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة الا انها نبتت فروعها في المغرب واجتثت ثمارها لغير غارسها ولم تنزل في بلادنا على كائنها واجيالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد القوة الى الفعل الا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين يجمع الى الاصول فروعها والى المقدمات نتائجها والى المجملات تفاصيلها باناً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القوية ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد جمة الثمرات للعموم وأيت من الواجب قياماً بالخدمة الانسانية ان أودع بعضها قوالب العبارات اللاتقة بها وانشر طيب وفدها في صحف الجرائد لتعم الفائدة والله يتولى التوفيق بين حفظه الله وأثبت ان الانسان نوع من أنواع الحيوانات الارضية

(لا كما يزعمه أرباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من أنهم من أبناء السماء فليتذكر من له فطنة) وأنه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأها ويسير في عيشه سيرتها يتفياً ظلال الأشجار، ويستكن في الجحرة والاوكر، ليس له شعار ولا دنار، (ولكن خفيف أعمار) يقتات بنباتات وعمرات تحضرها له القدرة الآسية، على يد القوى الطبيعية، لا تمسها يد صناعية، ولا تربية أجنبية، ليس له من المكر والتحيل الا ما لا يداني فيه الثعلب، ولا من العلم والتدبير الا ما يعثه على الغدو لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار والرواح للاستكنان في كنفه يواريه عن أعين الحيوانات العادية، والفرار من المكروه الحسية، كما تفر الشاة من الذئب، والارنب من الثعلب، ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود، ويقبضه متحكماً في كل موجود، ويدعوه للحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سبر الحقائق وعماد عالم الكون وأن جميع البسائط والمركبات انما خلقت لاجله، والكواكب والسيارات انما تتحرك لخدمته، بل كان ضعيفا عاجزا جاهلا حافيا عاريا يزعمه كل حادث، وتستفزه كل نبتة، ويتهب من كل شكل وهيئة، والشاهد على ذلك ما تحكيه لنا احوال الامم التي كأنها قريبة عهد بالانسانية في جنوب أفريقيا والقبائل المستمرة في قم الجبال والاجم والقابات البعيدة عن العمران البشري المعروف الذين لم تضطرهم الحاجات ولم تسقهم الضرورات الى الانتقال من مكان الى مكان فأنهم لم يزالوا على سداجة الحيوانية وبساطة الفطرة لا يفهمون خطاياهم ولا يحسنون جواباً، الا ما كان متعلقاً بضرورة الحياة كجلب قوت بسيط ومدافعة عاد من الحيوانات وجميع ما يمدد الانسان المتمدن كالا وانسانية فهم بعيدون عنه، عارون عنه، مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم على سطح الارض

الا أن مبدع الكون جلت قدرته لما اختص هذا النوع من بين الأنواع الحيوانية بخاصة المعجز والفقر والحاجة حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه لا يتحصل الا بالتحصيل وليس تحصيلها الا بعد الكد والعناء وهبه قوة عاقلة كلية التصرف، عامة القبول، و لكل تربية هذه القوة الى تعليم مدرسة الوجود الكلي فكان لكل نبات وحيوان بل لكل موجود مشهود حتى الاستاذية وسابق الفضل

على نوع الانسان فاسترشد بأعمالها، واهتدى بآثارها والنقط دبر الحكم من فعلها وانفعالها، وتدرج في ذلك شيئا فشيئا تارة يخطئ وتارة يصيب، وطورا ينجلي له الحق وآخر عنه يفيب، مرة تعوقه العوائق القدرية والارادية عن ادراك الحقائق والوصول اليها، وأخرى تجذبه الجواذب اضطرارا للوقوف عليها، حتى وصل الى ما تراه من أحواله الغريبة، وآثاره العجيبة،

ثم بين حفظه الله كيف كان يتلب الانسان في سيره هذا ويقطع عقبات المصاعب، ويخترق حجب الجبال، متقادا في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يا ممرأه، ويتبع سيره تارة يتدرج الى الكمال فيقدمه مقصد رئاسة الكون، وسلطنة الوجود، بما يرشده اليه من الفنون واختراع الصنائع، وأخرى ينحط به الى قعر جحيم الاوهام، ويقذف به في جب الخرافات، ويكبله بقيود الاعتقادات السخيفة، ويفل يديه بسلاسل العادات والافكار الرديئة، على ان جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة انما نشأت له من قياس حوادث الكون وظواهره على ما يصدر عن ذاته (الشريفة) حيث جعل لها غايات تحاكي غاياته على تفصيل طويل في ذلك مستشهدا في تبيانه بشواهد أحواله الآتية المشهودة، مستدلا بجميع أعماله المنقولة الموهودة

وانه في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات الا بدعائم الصنائع التي هدته الى اختراعها تلك القوة العاقلة الكلية، لتكون له عوضا عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكالية، التي منحت له من الحيوانات بأصل الفطرة، وليس ذلك بخاف على ذي شعور فإن صنعة الحياة مثلا قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفترزة للأشعار والابواب الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحربل القائمة مقام ترص يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية غيره، وصناعة المدبذ والاسلحة منزلة منزلة القوة المولدة للمخالب والبرائن والأنياب للصيد والصيد والعداوي الطيور وهكذا بقية الصنائع وعالم يقوم منها مقام ضروري أرجح ان يكون مقام كلي على ما يتضح لك بعد



وإذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في بيئته وكانت رأبنا من الواجب ان نعرف الصناعة ونقسمها الى أقسامها الثلاثة

ما قرره الحكماء الاقدمون، وأوضحه الفلاسفة المتأخرون، لئيبين شرف كل صناعة على وجه الاجمال فنقول

الصناعة قوة فاعلة راسخة في موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات والقوة منشأ الاثر مطلقا فصلا كان أو انفعالا فالعلم مثلا ذو قوة الفعل والتعلم ذو قوة الانفعال الا ان قوة التأثير والقبول لاتعد صناعة ومن أجل ذلك قيدت بالصناعة وليست قوة فاعلة صناعية ما لم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم فالقوة الحالبة التي تعرض آنا وآنات ثم تزول ليست منها في شيء وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلا تدخل في مفهوم الصناعة كالأفعال الطبيعية من احراق النار وتمديد الحرارة وتجميد البرودة وما شا كل ذلك فان لم يكن الفكر صحيحا كفكر السوفسطائي المنكر لبداهيات العلوم أو كان نحو غرض غير محدود الذات كأعمال الجدلي الذي أخذ على نفسه ان لا يقر قولا لقائل آنا كان حقا أو باطلا فليس له حديقف عنده بل قوته متوجهة الى معارضة مقابله فان كان نافيا كان هو مثبتا وان كان مثبتا كان هو سالبا فليس بصناعة

ثم ان نظر في عالم الوجود الكلي علم اليقين انه وان وقع كثير من صورته وكالاته تحت قوى طبيعية كقوى النمو والجذب والدفع أو قوى احساسية كقوى طلب الغذاء مثلا في الحيوانات أو الهرب مما يؤلم الجمان الا ان عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم ونعني بالترتيب العقلي ما يكون مبنيا على مراعات الغايات والحكم وفوائد الكمال التي تعود على نظام الكل وتبقى ببقائه فان العقل على خلاف الحس انما ينظر الكلي الباقي أولا ثم يتدرج منه الى الجزئي لا العكس

وان واضع هذا النظام العام قد خول الانسان من قوة العقل ما لم يخوله غيره وجعلها محور صلاحه وفلاحه ان وجهها صوب وجهتها الحقيقية فان استعملها لغايات طبيعية أو حسية أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لا تفيد سواه كأن يطلب بها تنمية بدنه أو جلب ما يلائم ذائقته أو مهامته وما يشبه ذلك فقد أضاع تلك القوة

العالية الشريفة وسلخ عنها ثمرتها وانحط الى درجات الحيوانات بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة واما من حفظ نفسه من السقوط وامسك عليها حق تلك الخاصة أعني العقل فهو الذي ينظر الى كلية العالم الكبير فيعلم ان نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله أو ممتاعه فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال ويوقن ان نوع الإنسان لا يحفظ بقاؤه في عالم الوجود الا بحفظ أشخاصه على التماقب كما نبأنا اللطيف الحبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة ويتحقق ان حفظ أشخاصه وافراده إنما يكون بالاجتماع والالتزام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن ان يأتي عليها في الازمنة المتطاولة مع اضطراره الى جميعها في الآن الواحد كما تراه في مواد الأغذية التي لا تحصل الا بزراعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عجن وخبز وطبخ وهلم جرا وجميعها أيضا يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ونحوها ولوازم الاكتساء من المري وضروريات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات كل ذلك لا يكون الا بأعمال تستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلاً عن نحصيل غايته منها فكيف به ان يستقل وهو محتاج الى ثمرات جميعها يوماً بل ساعة بساعة فلا بد من التعاون في الاعمال ليعتاض كل عن ثمن عمله بشرة عمل الآخر فيكون المجموع الإنساني كبدن ذي أعضاء وبممل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه اذ لو طلب الاختصاص مع انه لا بقاء له الا في ضمن المجموع - فقد طلب فقد نفسه من حيث لا يشعر فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضواً حقيقياً وركناً ثابتاً يقوم بأداء عمل يعود على كلية الافراد أولاً من طريق كايتهم و يعود الى شخصيته ثانياً ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الإنساني ويهين على انظام الهيئة الكلية فهو كالمضو الأشل لا فائدة منه على البدن الا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من ازالته فالاولى ابانته وقطعه بل ان كان لا يعمل ويسعى الى بقية الافراد في عدم العمل كالأباحية الذين يعتقدون انه لا ملكية لأحد في مال ولا عرض حيثما جاعوا أكلوا أو شبعوا واقعوا ويثون أفكارهم بين افراد النوع ليقصدوا بأعمالهم ويسيروا بمثل سيرهم فيتركون الأعمال اتكالا على ما بيد الغير

حيث انه مباح لهم فان تغلبت أفكارهم بطلت الصنائع وذهب ما بيد الغير وما بأيديهم فيحتاجون الى الضروري من الاقوات وغيرها ولا يجدون فيهلكون فأولئك كالأمرض السارية مثل الجذام والزهري لا بد من قطع العضو الموف « المصاب » بها وإلقائه في النار لئلا يتعدى ضرر مرضه الى سائر البدن ومن هذا القبيل الفساق والفجار وان لم يكونوا اباحين فان أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ما أتى من أولئك فينبغي ان يحاقبوا ويؤدبوا ويحال بينهم وبين أعمالهم هذه بكل ما يمكن وان كانت بالتهذيب حتى يستقيموا أولاً يقيموا

ومن الناس من مثله مثل الأمراض الغير السارية والاعضاء الزائدة كن أصيبوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الاشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه فلا بد ان يتحمل ثقلهم ان لم يمكن استشفائهم فراراً من ألم القلب عند آخرتهم واقطاعهم لما لهم من العذر القائم اذحيث ان مدبر الكون قد حرّمهم عطاء العقل أو عطل فيهم آلات خدمته فهو غير مطالب لهم بأداء فروضه أو قضاء حقوقه الا ان الحق الأعلی قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة الكلية من هؤلاء وأولئك الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الإنسانية فهم مبعوضون في النفوس مطرودون من زوايا القلوب ساقطون عن نظر الاعتبار بل هم ملعونون من أنفسهم أيضا اذ يجد كل واحد منهم من نفسه عند ما يخلو بها انه تحسيس منحط الدرجة ردي العاقبة وان كان شقاؤه يغلب عليه فيما بعد فانظر الى حكمة ربك كيف تنبه الغافل وتوיד العاقل ولكن أكثرهم لا يعقلون

واما ذوو البطالات ومن رفضوا الأسباب ووكوا أنفسهم الى التوكل الكاذب اذ لم يتحققوا معنى التوكل وظنوا انه عبارة عن معارضة سنة الله التي قد خلت في عباده ودعوا ذلك تبسلا واتقطاعا عن عالم الظاهر مع أخذهم لكشكول التكفف وخلقهم بلباب التعفف فهم بمنزلة شمر الإبط لا ينشأ عن تكاثفه سوى عناء الحلك واستجلاب بعض العفونات ان لم يتعهد بالتطهير ويستحب ازالتهم ونقمة الهيئة الاجتماعية من درنهم فان بلغ من أمرهم ان يتخذوا ذلك أمرا يدعي اليه

وذهبوا في الناس يحولون وجوههم عن الأعمال ويقلدون أعناقهم سبع المكر والحيلة ويسربلونهم بسر ايل التمويه والتزوير ويفرونهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع يودعون نفوسهم اخلاق الشيطان من حب الرئاسة الكاذبة وتطلب الدنيا من الدنيا من كل وجه والحقد والحسد والعداوات وغير ذلك ويحجبون ذلك بأستار من التلبس (الغير المنتظم) ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الأستار طالبين انتهاب أموال الناس والاستئثار بشمات اكسابهم باسم انهم وانهم وانهم (كأ ترى) وجب إلحاقهم بالاباحيين وتحم على كل ذي شعور من بني النوع ان يسمي تقطع دابرهم واستئصال شأفتهم كيلا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم ويعود ويل ذلك كله على العامة والخاصة معا . وبالجملة حيث تبين ان لا قوام للانسان الا بالصنعة فمن أخل بوظائفها أورامها بالنقد فقد عمد الى هدم بنيان الانسانية فليها ان تطرده من أبوابها وتمحو اسمه من كتابها

ثم ان الصنعة على التعريف المتقدم تنقسم الى اقسام اما نافعة ضرورية أو غير ضرورية وإما أن تكون كثيرة النفع أو قليلة أو ممتعة لفعل الطبيعة أو مزينة له فالقسم الاول كالحدادة لأنها مما يحتاج اليه جميع الصناعات العملية والثاني كتهضر الثياب مثلا والثالث هو ما يكون الغاية منه نفع الانسان لا غير كالحكمة التي هي مقننة التوازن وموضحة السبل وواضحة جميع النظمات ومهيئة جميع الحدود وشارحة حدود الفضائل والردائل وبالجملة فهي قوام الكمالات العقلية والحلقية ومن هذا القسم الحكومة العادلة والرابع (أي الذي هو خير بالواسطة) كالزراعة والكتابة فإن لها غايات سوى نفس الانسان لكنها تؤول اليه والخامس (وهو الكثير النفع) كالنجارة والتجارة مثلا والسادس كصناعة الصيد وما شاكلها والسابع كعلم الطب المتعم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على آتمام وظائفها والثامن كالصبغة والنقش والتلون وغير ذلك ثم ان شرف كل صناعة وكل فن بهجوم موضوعه وشمول غايته وان أعمم الأقسام موضوعا هو صناعة الحكمة لما بينا من انها الباحثة عن كل ما يلزم للانسان اتخاذه في أعماله وافكاره واخلاقه فهي أشرف الصناعات والحدادة وان كانت عامة لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المنقاد من السيد الحاكم الأصرا